

وعلى كل حال كانت استجابة الخليفة مروان لهذه الرسالة أن أرسل بتوجيه من كاتبه عبد الحميد - إلى ابن هبيرة ، أن يولي نيابة بن حنظلة أمر خراسان ، وأن يوجه إليها عامر بن ضبارة كذلك . لكن مدينة مرو ما لبثت في العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ أن سقطت في أيدي الثوار ، واضطر نصر إلى الهرب ، حتى أتى نيسابور فالتف حوله القيسيون جميعا ، فقال في ذلك : سأذكر من وفاء كرام قيس وعظم غناهم في كل يوم وأعرض عن ذنوب ذوي الوصوم كأن نجومه قطع الغيوم وكان الأمر قد ورد إلى أبي مسلم من إبراهيم الإمام بالتحرك نحو العراق فدخلت جيوش الهاشمية مدينة سرخس وقتلت شيبان بن سلمة الحروري ه وبلغ الخبر نصرا فاشتد جزعه وقال : اليوم استحکم الشر على مروان ؛ فإن نصر بن سيار كتب إلى أمير المؤمنين بمن تجمع من أعداء الله من شرار العجم وسقاط العرب . ويشكو سوء إجابتك إياه . وتناقلك عن إمداده ، فما أكثر استزادة أمير المؤمنين لك في كل ما يأمرك وينهاك عنه . فإذا نظرت في كتاب أمير المؤمنين فسرب إلى نصر الجموع بعد الجموع ثم أتبعهم القوة بعد القوة . وسرح من ولدك أحمد هم عندك عقلا . وأصحهم نية في جهاد عدو أمير المؤمنين . وله أمر ذلك الجند ، ومره بحسن سياستهم والرفق بهم ، حتى يكون لهم كالوالد الشفيق أو المؤدب الرفيق ، حتى لا يدخله سامة فيما يحاول من مصلحتهم . ثم آثرهم بما يجتمع عندك من الفياء . واشتدت شوكة من تجمع هناك . واستولت السفلة على الأختيار . وعلى أهل الدين والحسب ، للذي كان الله ابتلاه به من الفرقة والتباين . فأبدلهم الله بذلك مذلة الأرياب وربوبية العبيد . فإن العراق لك مدد ، والأموال لديك كثيرة . ولا يحال بينك وبينها . فاجعل ما تدمهه به من مال وسلاح من قبل فارس ، وعليهم أوسع (1) وهذا الخطاب يدلنا على أن مروان كان قد أدرك حجم الخطر القادم من خراسان ، وأنه ضاق ذرعا بواليه ابن هبيرة ، الذي تلتأ كثيرا في مؤازرة نصر ، والذي كان بهذا السلوك يشفي - فيما يبدو - بعض الإحن في نفسه على نصر ، إذ يراه منكسرا ذليلا . وتوالى سقوط مدن خراسان في أيدي الثوار الواحدة بعد الأخرى . فسقطت نيسابور وجرجان وقومس وطبرستان والحوار والري . ومرض نصر مرضا شديدا توفي على أثره في ربيع الأول من سنة ١٣١ هـ . ثم سقطت أعلن محمد بن خالد القسري خلع مروان . أما أهل الشام فتمد تفرقوا ، فمضى أكثرهم مع ابن هبيرة إلى واسط ، ومضى بعضهم إلى الشام ، ومضت طائفة منهم قليلة إلى محمد بن خالد . أما مروان الخليفة فقد خرج من حران بقوة عظيمة حتى انتهى إلى الموصل . وإلى ذلك الوقت لم يكن اسم الإمام الذي تدعو إليه الثورة قد أعلن على الجماهير . وكان آل إبراهيم الإمام - وفيهم أخواه أبو العباس وأبو جعفر - قد أسرعوا بعد موته بمغادرة الحميمة إلى الكوفة . ولكن أبا سلمة الحلال - كبير دعائهم فيها - أبقاهاهم في مكان خارج المدينة وأخفى خبر شخوصهم إليها . وعبد الله المحصن بن حسن بن حسن ، وعمر الأشرف زين العابدين ، (١) . ولكن أحدا من هؤلاء لم يستجب له . وفي الوقت نفسه أسعفت الصدفة على تعرف الناس على المكان الذي نزل به آل محمد فأسرعوا إليهم . وسلموا على أبي العباس بالخلافة . وخطب أبو العباس الناس يوم الجمعة فجامل أهل الكوفة ، وأعلن أنه قد زادهم في الأعطيات مائة درهم . ولكنه كان متوعكا فتمام عمه داود بن علي وألقى خطبة مسهية (٢) نوجز فحواها فيما يلي : أن بني العباس لم يخرجوا طلبا للدنيا واكتناز الثروة وبناء القصور . بل أنها من ابتزاز بني أمية حقهم . وغضبا لما أصاب بني عمومتهم العلويين من الضر على أيدي الأمويين . - وأنهم لم يخرجوا إلا لسوء سيرة بني أمية في الناس بما أذلوهم واستأثروا بالفياء والصدقات والمغانم دونهم - الوعد بالحكم بين الناس بما أنزل الله في كتابه العزيز دون تفرقة بين عامة وخاصة - أنهم سيظلون ولاة هذا الأمر حتى يسلموه إلى عيسى بن مريم عليه السلام . والادعاءات الثلاثة الأولى طبيعية للغاية ، ولكن الادعاء الرابع بلغتنا إلى شيء جديد . هو تصور العباسيين منذ ذلك الوقت لتداولهم حكم الناس إلى آخر الزمن ، حتى يجيء المسيح المخلص فإلى من كانت هذه الفكرة توجه ؟ وعلى أي أساس كانت تفهم ؟ وبأي حق يظل الحكم فيهم إلى آخر الدهر ؟ وهل لذلك صلة بمعتقدات غير إسلامية كانت رائجة في ذلك الوقت ، والجواب عن هذه الاسئلة ربما يعيننا على تفهم الأسس النظرية التي كانت الثورة العباسية تقوم عليها . وسوف يتضح لنا هذا في حينه . فالتقى الجيشان على نهر الزاب الأكبر ، ودارت بينهما معركة عنيفة انتهت بانتصار عبد الله ، وفر مروان هاربا . وظل عبد الله يتعقب مروان في مدن الشام وفلسطين ، إلى أن طلب إليه أبو العباس أن يوجه صالح بن علي في أثره . وورد مروان مصر ، ولكن صالحا ظل يتعقبه إلى أن عثر عليه فقتله . وكان ذلك في أواخر شهر ذي الحجة من سنة ١٣٢ هـ . والحق إن عبد الله بن علي تمادى في الانتقام ، فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام ، فقتلهم ، ولما فرغ من قتلهمو الآن وقد حققت الدعوة غايتها من إسقاط حكم بني أمية ، ومع مجيء العباسيين إلى الحكم ، نعود إلى سؤالنا القديم : هل كانت حركة العباسيين هذه ثورة بمعنى الكلمة ، أم أنها لا تعدو أن تكون انقلابا ؟ الواقع أن النظر إلى الحركة العباسية على أنها مجرد انقلاب ذهب بحكم طائفة وجاء بحكم أخرى هو تبسيط محل للأمر ولا بد من استبعاده ، لأن ما حدث كان أكبر من هذا بكثير . وإذا كان الأمر كذلك فلا يبقى إلا أن تكون ثورة ، ولكن أي نوع من الثورة هي ؟ إن

منطلقات الثورة تكون إما دينية وإما اجتماعية (اقتصادية وسياسية وثقافية) ، وهي في كلا الحالين تستهدف التغيير والإصلاح ، وإن اختلفت في وسائل التغيير والإصلاح . فمن أي المنطلقين خرجت الثورة العباسية ؟ لقد طرحت في إبان الدعوة عددا من الشعارات ، بعضها يتصل بالعقيدة الدينية وبعضها يتصل بالأوضاع الاجتماعية فمن الناحية الدينية أعلنت الثورة في كثير من المناسبات على لسان دعايتها التمسك بكتاب الله والاهتداء بهديه والعمل بما فيه . وكذلك أعلنت عن إنكارها المظلم وضرورة التزام ولاة الأمر العدالة وهم تحت مبدأ إنكار الظلم أرضوا كل الشيعة العلوية . أولئك الذين كانوا يرون في الأمويين مغتصبين لحقهم . والذين لقوا منهم صنوف العسف والاضطهاد . وكذلك أرضوا القبائل العربية التي كانت قد بدأت تعاني من تمييز قبائل أخرى عليها . كما أرضوا الفلاحين الذين كانوا أشبه بعبيد الأرض . وقد أرضوا المعتدلين كما أرضوا المتطرفين (مرحليا على الأقل) فقادوا جيوشهم تحت راية الظل (بما ترمز إليه في التراث النبوي) وراية السحاب (بما ترمز إليه من أفكار الشيعة السبئية الغلاة) . وأيضا فإنهم بإعلانهم عن بقاء الأمر فيهم إلى آخر الزمن حتى يجيء المسيح المخلص قد أرضوا كل الطوائف التي كانت تؤمن بعقيدة التناسخ والحلول . وبخاصة الراوندية في خراسان ، الذين كانوا يزعمون أن روح عيسى بن مريم قد تجسمت في علي بن أبي طالب . ثم في الأئمة من بعده . حتى الإمام إبراهيم بن محمد ، وأن الإمام بهذا ينطوي على روح إلهية . بل إنهم أرضوا بهذا كل الجماعات الفارسية التي كانت قد اعتنقت الإسلام وظلت مع ذلك متمسكة بمعتقداتها القديمة . فقد كان الملك لديهم (إنسانا حلت فيه الألوهية . . وهذه الروح المقدسة تنتقل من حاكم إلى آخر عن طريق التناسخ . وهكذا فقد نسبوا القوى الخارقة للملك ، وعبدوه باعتباره مقاما للحضور الإلهي . وهكذا فإن كثيرا من الفرس - رغم اعتناقهم الإسلام - ظلوا متمسكين بأرائهم القديمة ، وكانوا مستعدين لعبادة الخليفة كعبادتهم ملوكهم من قبلولم تكن صورة الخليفة الأموي مقنعة لهم ، فوجدوا في بعض أقوال الدعاة للرضا من آل محمد ما يشبع فيهم تصورهم لما ينبغي أن يكون عليه الخليفة . ويمكننا أن نلاحظ الوسائل الإجرائية التي اتخذها بنو العباس الضمانا للوصول إلى غايتهم فقد التزموا السرية في نشر مبادئهم ، مستفيدين من الهيكل التنظيمي السري الذي كان يتبع أبا هاشم الإمام بن محمد بن الحنفية . وقد ظل هذا التنظيم يعمل بتوجيه من محمد بن علي ثم ابنه إبراهيم الإمام في إطار هذه السرية ثلاثين عاما . ولم يحدث هذا فور خروج الثورة من المرحلة السرية إلى مرحلة العمل العلني . بل في الوقت الذي لاح فيه أن نهاية بني أمية صارت وشيكة ومحقة وهم في مرحلة النضال العلني لم يجدوا بأسا في التطرف في القسوة مع كل من يساورهم الشك فيه ،